مناهج البحث في الأديان بين المدرسة الإسلامية والمدرسة المسيحية

د. مسعود حايفي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

تمهيد:

الحديث عن العقائد البشرية هو في جوهره قديم معاصر، وإن اختلاف الأديان وتعدّدها، جعل مادة البحث فيها تتّسع، بمقدار ما اتّسعت دائرة التعارف بين الناس على اختلاف مللهم، وتزايد اهتمامهم للتعرّف على مذاهب بعضهم بعضاً كما تباينت الأطر الفكرية للباحثين ومناهجهم، ومن ثمّ تباينت أهدافهم ونتائجهم التّي توصلوا إليها.

ويجب هنا التنبيه إلى الفرق بين البحث في نشأة الدّين وبين نشأة علم الأديان، ذلك أنّ المقصود بنشأة علم الأديان، ثم علم الأديان المقارن، هو الدّراسات التّي تتتبّع المراحل المختلفة لتسجيل الظواهر الدّينية وتحليلها وكذا مقابلتها فيما بينها[1].

البحث في الظاهرة الدينية عبر التاريخ:

يميّز الباحثون في لم الأديان المقارن ثلاث مراحل كبرى في تاريخ الدّراسات المتعلّقة بالبحث في الأديان وهي كما يلي:

---

[1]- أحمد الخشاب، الاجتماع الديني، ص 19.

أولا: مرحلة العصر القديم: وتتحدّد بظهور الفكر الفلسفي، حيث بظهوره تحدّد نوع من الوعي النقدي للدّين شيئاً فشيئاً.

ثانياُ: مرحلة العصر الوسيط: حيث ازداد اهتمام الباحثين بالظاهرة الدّينية حيث ظهر إثر ذلك المذهب الفعلي الحديث والذّي تمحور حول الصّراع مع الدّين.

ثالثاً: مرحلة العصر الحديث: وتتميّز بالنظرة الحديثة إلى شؤون الإنسان وإلى الظاهرة الدّينية، وفيها التقت العلوم الإنسانية في مجال المعرفة بدءً من القرن التاسع عشر وإلى اليوم[1].

العصر القديم:

1- **عند الإغريق:** تشير أقدم الآثار المحفوظة عن العصر الإغريقي، والتّي ترجع إلى حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، ونعني بها الديوانين المنسوبين إلى هوميروس، وهما الأوديسا والإلياذة، إلى أسماء آلهة اليونان وآلهة خصومهم، كما تصف كيفية التقرب إلى تلك الآلهة من القرابين والضحايا والتوسلات التّي كان يتوجه بها المكروبون والمظلومون إلى آلهتهم، كما تذكر تلك الآثار، أيضاً، ما كان يجري في زعمهم بين آلهة السّماء من تشاور، وتنازع فيما بينها، حيث تختلف آراؤها حول الانتصار لهذا أو لذاك من الناس.

وقد تميّزت هذه المرحلة بأنّ أمر الأديان فيها إنّما كان يأتي عرضاً وفي ثنايا الكلام عن شؤون الحياة، كما اتسمت الروايات المتعلّقة بعالم الآلهة بالطابع الأسطوري والتمثيلي الذّي يتغذى من خيال وتفكير الكاتب وطريقة تعليله للأحداث.

---

[1]- عادل العوا والمستشرق جب.. لم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، 6.

وفي فترة متقدمة حوالي القرن الخامس قبل الميلاد جاء دور المؤرخين الرحالة أمثال هيرودوت، وهي المرحلة التّي تشبه سابقتها من حيث عدم إفراد الأديان بتأليف مستقل، حيث جاء الحديث عنها في ثنايا الكلام عن خصائص الأقاليم والشعوب... إلاّ أنّ ما ميّزها هو أنّ الحديث عن الأديان كان وليد المشاهدات والمعاينات لا التخيلات، كما أنّ نطاق البحث فيها كان أوسع، حيث شمل الوصف ديانات آسيا وصر، وبابل وفارس...[1].

كما امتاز التأليف في هذه المرحلة أيضاً بطابع المقارنة بين معبودات الإغريق ومعبودات غيرهم، وعلّل الصّراع بين الإغريق وخصومهم، بالصّراع بين آلهتهم وآلهة خصومهم أيضاً.

وقد كانت فتوح الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد من أسباب اتّساع دائرة التعرّف علىَ أديان أخرى، حيث وصلت فتوحاته إلى الهند، وممّن قام بالكتابة عن الأديان في تلك الفترة ميجاستين[2].

وإلى جاب هذه الدّراسات الوصفية لمختلف الأديان المعروفة آنذاك، قامت دراسات نقدية تهدف إلى تمحيص حقيقة الدّين بوجه عام، في ثنايا البحث عن حقائق الأشياء، ويرجع الفضل في تأسيس الفلسفة التحقيقية الإيجابية، التّي تعترف بوجود حقيقة ثابتة للأشياء وبإمكان العلم بها، إلى سقراط الذّي عمل على تفنيد مذاهب الشّك والإلحاد التّي كانت تنكر وجود أيّة حقيقة ثابتة، وهي المذاهب التّي كان يروجها السوفسطائيون، وهم قوم ذوو قدرة على الجدل والمغالطة، وكانت فلسفتهم

---

[1]- محمد عبد الله دراز، لدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص 13.

[2]- المرجع السابق، ص 13.

مقدمة لظهور مذهب التشكيك الصّريح، المعروف باسم اللاأدرية وهو المذهب الذّي أعلنه بيرون في زمن الإسكندر المقدوني. كما انتقلت المدرسة الرواقية، بعد ذلك، من الفلسفة الملحدة الخالصة إلى الطرف النقيض لها وهو الاعتراف بوجود روح يدبر العالم ويتعهده في أطواره، والتّي انتهت فيما بعد إلى القول بوحدة الوجود[1].

2- عند الرومان:

في القرن الثاني قبل الميلاد أخضع الرومان الدولة اليونانية سياسياً، فأصبحت ولاية تابعة لهم، بعد أن كانوا هم تبعاً لها. ولقد كان الفتح الروماني لبلاد الإغريق سبباً في تقل بعض آرائهم إلى روما، كما كان فتح الرومان للبلاد الأسيوية والإفريقية، سبباً في نقل بعض المذاهب والآراء إلى روما، ولهذا ظهرت في هذه الأخيرة أسماء لآلهة الشعوب الأخرى مثل ميثرا، بعل، إيزيس..

كما كان الاتّصال بالشعوب الأخرى دافعاً لبعض الكتاب من الرومان في القرن الأول قبل الميلاد للكتابة عن أديان تلك الشعوب، فلقد كتب شيشرون عن الآراء الفلسفية في طبيعة الألوهية، وكتب فارون عن الشعائر والعبادات الرّومانية[2].

كما عني هؤلاء الكتاب الرومان بمحاولة التوفيق بين الدّيانة الرومانية وغيرها من الدّيانات الأسيوية والإفريقية التّي كانت موجودة في ذلك العهد[3].

1- المرجع نفسه، ص 16.

2- محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص 18.

3- أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص 32-33.

العصر الوسيط:

دخلت المسيحية إلى أوربا في منتصف القرن الأوّل بعد الميلاد، مرتدية زيّ الدّين السّماوي الذّي يرفض أن يصنّف مع الأديان الأخرى، ويحاول أن ينتصر عليها ويحلّ محلّها، وقد ساء جمهور الوثنيين الرومان عزلة المسيحيين وتعاليهم وثقتهم بأنفسهم، فناشدوا حكامهم أن يعاقبوا أولئك الذّين يهينون الآلهة الرومانية، ولهذا أصبح الجهر بالمسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد جريمة يعاقب عليها بالإعدام[1]. ولقد كان لما لحق بالمسيحيين من أصناف العذاب، دور في لفت الأنظار إلى المسيحية وكسب أنصار لهذه الجماعة المضطهدة.

وعندما صدر مرسوم ميلانو من طرف قسطنطين وليكسوس سنة 313م، والذّي قضى بالتّسامح مع المسيحيين، حاول رجال الدّين المسيحي أن يقنعوا قسطنطين بأن يجعل الدّين قاصراً على المسيحية، وأن يضطهد الأديان الأخرى، ولكنّه صمد لهم واستمر على سياسة تعايش كلّ الأديان معاً، كما جعله رجال الكنيسة يشتدّ على من أسموهم الهراطقة[2].

وقد تزايدت إجراءات وقوانين الاضطهاد بدخول العصور الوسطى، لقد صار للحكام دور ديني إلى جانب دورهم السياسي، الأمر الذّي أدّى إلى الصّراع بين البابوات والأباطرة، وهو الذّي دفع بكل طرف إلى المزايدة في الاضطهاد لينال مزيداً

---

[1]- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة (عبد الرحمن بدوي)، زكي نجيب محمود الجزء الثالث من المجلد الثالث. مطبعة كلية التأليف والترجمة والنشر، ط 3، القاهرة 1968، ص 391.

[2]- المرجع نفسه، ص 396.

من التأييد الشعبي. وكان ضحايا هذه المزايدة كثيرين، حتّى صار اعتناق المسيحية شرطاً جوهرياً لكي يكون الشخص مواطناً في الدّولة الرومانية[1].

وكما غالت الكنيسة في معاداة خصومها من غير المسيحيين، غالت أيضاً في التنكيل بالمخالفين من المسيحيين الذّين خرجوا عمّا أسفر عنه المجمع النيقاوي 325م، من الإقرار بألوهية المسيح، وما أسفر عنه المجمع القسطنطيني الأول 381م، من الإقرار بألوهية روح القدس، حيث كان مصيرهم الحرمان والتنكيل والاضطهاد. ففي إفريقيا مثلاً لم يتردد القديس أوغسطين، أسقف قرطاج، في القرن الرابع الميلادي، في اللّجوء إلى القوات الرومانية من أجل بثّ الرعب وإبادة المسيحيين أصحاب المذهب الدوناتي[2].

لقد تميّز العصر الوسيط وخاصة فيما يخص التاريخ المسيحي بالطابع الجدلي في العقائد إذ صوّر اللاهوتيون المسيحيون من بولس إلى أوغسطين وتوما الإكويني وانسلم، المسيحية كدين مطلق في مقابل الأديان النسبية الأخرى، واعتبروا كلّ الناس مدعووين للالتحاق بالسبيل الأوحد للخلاص، وترك الأديان الأخرى التّي ما هي إلاّ هرطقات وانحرافات.

لقد اعتبرت الكنيسة المسيحية نفسها المهيمنة على العالم كلّه، والسلطة الوحيدة المخولة بتقديم مفهومها الوحيد عن الإيمان لجميع البشر، فبالنسبة للمسيحية في العصور الوسطى فإنّ حلقة الخلاص قد تمّت، بمجيء المسيح، فالتاريخ البشري بماضيه ومستقبله إنّما يكتسب معناه من هذا المجيء.

---

[1]- جون لوك، رسالة في التسامح ترجمة عبد الرحمن بدوي دار الغرب الإسلامي، 1978، ص 12.

[2]- مسعود حايفي، حوار الأديان: الإسلامي المسيحي نموذجاً، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 2006م جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة (غير مطبوعة)، ص 84.

وهكذا فقد تميّزت هذه الفترة بـــ:

- نظرة الكنيسة إلى الأديان المخالفة على أنّها بقايا الوثنية، وإلى أصحابها على أنّهم وثنيون.

- كانت كتابات اللاهوتيين المسيحيين قائمة على المفاضلة بين المسيحية وبين سائر الدّيانات، وخلاصة المفاضلة أنّ المسيحية هي الدّين الوحيد الذّي مصدره غير بشري.

- كان نتيجة هذا الاعتقاد أن مارست الكنيسة الاضطهادات ضد مخالفيها من غير المسيحيين ومن المسيحيين أنفسهم بدعوى الهرطقة.

- كانت نتيجة التعصب الإعلان أنّ جميع الدّيانات ماعدا المسيحية ذات أصل شيطاني، ولذا فإنّ عقائدها زائفة كاذبة[1].

لقد كانت القرون السّتّة الأولى للميلاد مشحونة بالصّراع بين اليهودية وبين المسيحية، وبين المسيحية وبين الأديان التّي كانت منتشرة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية الواسعة آنذاك، كما كانت مشحونة بالصّراع بين المذاهب المسيحية نفسها، ولهذا كانت أغراض الكتابة عن الأديان الأخرى، من الجانب المسيحي:

- تمجّد المسيحية بصورة مطلقة أو أحد المذاهب المسيحية.

- الهجوم والعدوان للحطّ من الأديان والعقائد والآراء المخالفة.

لقد ظهر الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي في شبه الجزيرة العربية، وأعلن منذ البداية أنّه امتداد للرسالات السابقة، وأقرّ بالقرابة بينه وبين اليهودية والمسيحية، وجعل من مقتضيات الإيمان وأركانه، الإيمان بالكتب السابقة المنزلة قبل القرآن الكريم،

---

[1]- عادل العوا والمستشرق جب، مرجع سابق، ص 60.

والإيمان بجميع الرّسل والأنبياء دون تفريق بينهم، فأصبح من أركان عقيدة المسلم الإيمان بالتوراة والإنجيل...والإيمان بموسى وعيسى وإبراهيم... ولم يقف الإسلام عند هذا الحدّ النّظري فسنّ سنناً عملية، تتمثل في قبول الآخر المخالف دينياً والإحسان إليه: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتّي هي أحسن"[1].

وعندما قدم النّبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة (يثرب) وجد بها يهوداً، فلم يلجأ إلى سياسية الإبعاد والإقصاء، بل عرض عليهم العهد النّد للنّد، على أنّ لهم دينهم وله دينه، ولقد كانت وثيقة العهد[2]. بين المسلمين واليهود دليلاً تاريخياً على قبول المسلمين لمبدأ التعايش مع الآخر من أجل خير الجميع. وهي دليل على أنّ الإسلام لا يضيق بجوار أصحاب الأديان الأخرى.

كما يؤكد أنّ تعدّدية الشعوب، وتفرد كلّ منها بخصوصياته الدّينية أو اللّغوية لا يشكل عقبة في طريق خير الإنسانية وتوحيد جهودها.

وهكذا أقرّ الإسلام جملة مبادئ تشكّلت في إطارها الذهنية المسلمة واهتدت بها في تعاملها مع الآخر المختلف ومن هذه المبادئ:

1- الاختلاف الواقع بين النّاس في اللّغات والألوان، وما تبع ذلك من طرائق العيش، هو سنة إلهية، ودليل على عظمة الخالق عزّ وجلّ: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين"[3].

---

[1]- العنكبوت: الآية 46.

[2]- عبد الملك بن هشام: السيرة النّبوية تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد دار الفكر بيروت 1981، ج1، ص 312.

[3]- الرّوم: الآية 22.

2- إنّ الاختلاف الواقع بين النّاس في المعتقدات والأديان، لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر سنة الاختلاف الموجودة في كلّ شؤون البشر وهو واقع بمشيئة الله: "ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين"[1].

"ولو شاء ربُّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً أفأنت تكره النّاس حتّى يكونوا مؤمنين"[2].

3- إنّ الاختلاف والتنوع بين بني البشر فيه دعوة لهم للتعارف فيما بينهم واكتشاف ما عند بعضهم بعضاً.

"يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم"[3].

4- ومن هذا المنطلق سعى الإسلام إلى تأسيس الوحدة الإنسانية من طريق التذكير بالأصل المشترك بين بني البشر، ومن طريق بيان أنّ الشرائع السّماوية ترجع كلّها إلى أصل واحد، ومن ثمّ دعا أهل الأديان السابقة إلى تكوين أسرة روحية واحدة تؤمن بجميع الكتب وجميع الأنبياء.

"شرع لكم من الدّين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تفرقوا فيه".

5- كما أنّ غاية ما يملكه المسلم من أمر غيره من أهل الأديان الأخرى هو دعوتهم بالتّي هي أحسن إلى الإسلام والخضوع لمنهج الله الذي ارتضاه للناس والذّي

---

[1]- هود: الآية11.

[2]- يونس: الآية 99.

[3]- الحجرات: الآية 13.

يضمن لهم الصّلاح في الحال والفلاح في المآل: "ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتّي هي أحسن"[1].

وهي المهّمة التّي حدّدت للرسول محمد صلى الله عليه وسم- فلا يدخل في مهمّته إكراه الناس على الإيمان، وإنّما التعليم والإنذار ثمّ تفويض الأمر في عقائدهم إلى الله الذي يتولى الحكم بينهم في يوم الفصل "لا إكراه في الدّين"[2].

وفي هذا الإطار النّظري وفي هذا السياق العملي الذي رسمه الإسلام تفتقت عبقرية المسلمين في الكتابة عن الأديان الأخرى التّي كانوا يتعرفون عليها، من خلال الفتوحات، أو التجارة أو الترجمة، وتميّزت كتاباتهم تلك بـــ:

1- أنّها أصبحت كتابات وصفية واقعية، قائمة بذاتها، ومستلّقة عن سائر العلوم والفنون الأخرى، بعد أن كانت -فيما سبق- مغمورة في ثنايا التآليف والتصانيف في العلوم والفنون الأخرى.

2- أنّها أصبحت شاملة لكافة الأديان المعروفة وقتذاك، فكان لهم بذلك فضل السبق في تدوينه علماً مستقلاً، قبل أن تعرفه أوربا الحديثة بقرون.

- العصر الحديث:

ازدادت العناية بالظاهرة الدّينية في العصر الحديث وأخذت تشتد وتقوي، فقد بدأ كثير من الباحثين في القرن السادس عشر بتتبع ديانات بدائية كثيرة، وأخذ المبشرون، ومنهم الأب كاري الذي قام بدراسة كتب الهند بدراسة وترجمتها، وذهب د. بروس لتحري أصل الدّين في سلوك الإنسان فغدا رأيه منطلق الدّراسات الدّينية"

---

[1]- سورة النحل الآية، 125.

[2]- سورة البقرة الآية، 256.

الوضعية" [في القرن التاسع عشر]، وعندما ترجمت المصادر الهندية استطاع العلماء فك ألغاز الحضارات البائدة الهندية والفرعونية والأشورية- البابلية، ودبجت دّراسات حول الأديان المختلفة في تلك الحضارات وأسهم روبرتسون سميث وجون فريزر وماكس موللر إسهاماً كبيراً في أواخر القرن المنصرم (الـــ20) بتنمية هذا النشاط العلمي. كما أسهم شيلر ماخر وفخته وهيجل وماركس وأوجست كونت ودوركايم بمختلف نظرياتهم الفلسفية حول الظاهرة الدّينية.

ومن هذه الجهود والتأويلات المستندة إلى طرائق شتى برزت اتّجاهات فكرية مختلفة، ستكون موضع بحث فيما بعد.

مناهج البحث في الأديان

1- عند المدرسة الإسلامية:

لقد ساعدت عوامل كثيرة على ظهور علم الأديان المقارن عند المسلمين قبل غيرهم، أهمّها ما ذكرناه آنفاً من الاعتراف بالآخر المختلف دينياً، وقبول التعايش معه، والبحث عن اللّقاء معه من أجل خير الجميع، كما ساعد اتّساع رقعة الدّولة الإسلامية على أن تكون مسرحاً لالتقاء عدّة أديان، وتعرّف أهلها بعضهم على بعض، كما ساعدت حركة الترجمة التّي نشطت كثيراً في العصر العباسي، على تعرّف المسلمين على الثقافات والأديان الأخرى، كاليونانية والفارسية والهندية...

لقد جعل المسلمون من دراسة الأديان بحثاً مستقلاً بذاته بعد أن كان مغموراً في ثنايا أبحاث في فنون أخرى.

ومن أوائل من كتب في تاريخ الأديان النوبختي (202هـ)، الذّي يعتبر كتابه "الآراء والدّيانات" أول كتاب في هذا المجال[1].

وبعده كتب المسعودي (سنة 396هـ) كتابه المقالات في أصول الدّيانات، ثمّ ألف المسبحي (420هـ) كتاباً سمّاه "درك البغية في وصف الأديان والعبادات" وهو كتاب مطول يقع في حوالي ثلاثة آلاف صفحة.

كما كتب محمد أبو الريحان البيروني سنة 391هـ كتابه المشهور عن علوم الهند وأديانها والذّي سمّاه" تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، الذّي تناول في قسمه الثالث الخاص بالفلسفة (وما يتصل بهذه الأخيرة) عقائد الهندوس كتبهم، وقد كان كتابه هذا أول مفتاح لدراسة الأسفار المقدّسة الهندية (الفيدات).

ثمّ كتب ابن حزم (م456هـ) كتابه الشهير "الفصل في الملل والأهواء والنحل".

وكتب بعده الشهرستاني (م سنة584) كتاباً أسماه "الملل والنحل".

أنموذج للمدرسة الإسلامية في دراسة الأديان: البيروني

امتازت الدراسات التي قام بها الباحثون المسلمون في الأديان بما يلي:

1- يظهر من التدقيق فيما كتبه العلماء المسلمون في تاريخ الأديان أنّهم اهتموا بأديان من حاورهم من الشعوب، ولم يكن فيما كتبوه بحث في الأديان القديمة، وعقائد الأولين.

2- كما يظهر من خلال التدقيق أيضاً، أنّ العلماء المسلمين الذين كتبوا عن الأديان، لم يعتمدوا في وصفهم للأديان المختلفة على الخيال والظّن، ولا على الأخبار المحتملة للصّدق والكذب، ولا على العوائد الشائعة في الطبقات الجاهلة، والتّي قد

[1]- أحمد شلبي: مقارنة الأديان، اليهودية، ط7، مكتبة النهضة، القاهرة 1984، ص 27.

تنحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها ولكنهم استمدوا أوصافهم لكلّ ديانة من مصادرها الموثوق بها واستقوا من منابعها الأولى[1].

3- العرض الحيادي الموضوعي للدّيانة، كما يؤمن بها أتباعها.

يقول البيروني في مقدمة كتابه عن الهند: "وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاكٍ غير منتقد"[2].

لذا تخلو كتاباتهم ممّا عرفته كتب ذلك العصر من تحامل ونقد، فبحسب البيروني فكتابه:

"ليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتّى اشتغل فيه بإيراد صحيح الخصوم ومناقضة الزائغ عن الحق، وإنّما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه".

وبلغ حياد البيروني درجة يقول فيها العالم ادوارد سخاو:

"إنّك تقرأ بعناية صفحات عديدة من الكتاب دون أن يتبادر إلى ذهنك أنّ الكاتب مسلم وليس هندوسياً"[3].

ويقول الباحث الأمريكي ايمبريك: "يتقدم البيروني نحو فهم الاختلافات الثقافية... ويعرض عقائد الهنود تاركاً الهندوسيين يتكلمون عنها بأنفسهم وبتعبيرهم الخاص"[4].

---

[1]- محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص21.

[2]- محمد أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، حيدر آباد الهند 1958، ص 19.

[3]- صليبا لويس، الهندوسية وتأثيرها في الفكر الإسلامي دار بابليون، باريس 1995، ص 60.

[4]- نفس المرجع، ص 66.

وهكذا فموضوعية العلماء المسلمين كانت حدثاً استثنائياً في عصرهم، ومنهجهم فريد من نوعه في العصور الوسطى بين أهل الشرق والغرب.

وبجانب الدّراسات الوصفية الموضوعية للأديان الأخرى عرف المسلمون فلسفة الدّين منذ القرون الأولى، ودرسوا الحكمة وما وراء الطبيعة وعلم الكلام وعلم التصوّف.

ومن أهم المواضع التي توغل فيها العلماء المسلمون على اختلاف طوائفهم التوحيد والصفات والوحود والعدل والوعيد والمترلة بين المترلين والأسماء والأحكام، والسمع والعقل والرؤية السعيدة والرسالة، والإمامة وقد تشعب من كل موضوع من هذه المواضيع قضايا مختلفة كان لكل منها مدافع ومهاجم"[1].

كما كان لاحتكاك المسلمين بغيرهم من أهل الأديان الأخرى، وما صدر من هؤلاء في حق الإسلام من كيد ودسائس وفتن وشبهات، دور في ظهور أبحاث أخرى تتصل بتاريخ الأديان وهي الردود الإسلامية على أصحاب الأديان الأخرى، و التي كتبت للدفاع عند الإسلام ومعتقداته وأحكامه، وبيان فضله ومكانته.

وقد شهدت فترة القرن الرابع الهجري تحولا في الأبحاث المتعلقة بالأديان الأخرى من حيث المنهج المتبع، فبعد أن كان وصفاً أصبح بحثاً عن مواطن الضعف في ديانة الخصم.

هذا ما كان من اهتمام المسلمين بعلم الأديان قديما، ولقد قامت ظروف وعوامل مختلفة ومتشابكة، جعلت الاهتمام بهذا العلم يفتر وخاصة في عصر الضعف،

---

[1]- العميد الركن طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفاتها، ص 23.

حيث مال الناس للتعصب وقل وانعدم اطلاعهم على المذاهب الأخرى بله الأديان المخالفة.

ولكن مع بدايات النهضة العربية الحديثة، ظهرت محاولات لإعادة بعث الاهتمام بهذا العلم، وقد كان كتاب الأستاذ (مالك بن نبي) الظاهرة القرآنية باكورة هذه المحاولات، فقد جاء الكتاب بحثا في الظاهرة الدينية عموماً والظاهرة القرآنية خصوصاً، وقد أوضح مالك بن نبي رحمه الله في دراسته هذه

"أنّ الدّين في ضوء القرآن يبدو ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطّورها".

ولذا فإنّ الدّين يبدو في نظر مالك بن نبي وكأنّه: "مطبوع في النّظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر الذّي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحّد إلى أحط الوثنيات، حول مركز واحد، يخطف سناه الأبصار- هو حافل بالأسرار.... إلى الأبد"[1].

وقد درس مالك بن نبي مذهبين فلسفيين:

- الأول: وهو الذّي يعتبر الضمير الدّيني للإنسان ظاهرة أصلية في طبيعته، ظاهرة معترفاً بها، بوصفه عاملاً أساسياً في كلّ حضارة.

- الثاني: يعتبر الدّين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية"[2].

ويخلص المؤلف (مالك بن نبي)، إلى أنّ "الظاهرة النّبوية" و"الظاهرة القرآنية" تضعان الدّين في سجل الأحداث الكونية بجانب القوانين الطبيعية"[1].

---

[1]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين 1958، ص 30.

[2]- عادل العوا وحب، مرجع سابق، ص 31.

ولذا فإنّ الباحث كلّما أوغل في الماضي التاريخي للإنسان، سواء في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية، فإنّه يجد سطوراً من الفكرة الدّينية، كما أنّه يكتشف أنّ قوانين الأمم الحديثة دينية في أساسها"[2].

وقد اتّخذ المنحى نفسه الأستاذ محمد عبد الله دراز في كتابه الدّين بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان، وقد نشره سنة 1952م، مبيّناً فيه الأصول الكلّية التّي يحتاج إليها الطالب الجامعي. وقد قدّم المؤلف لكتابه بموجز عن الحوادث الدّينية، كما تصدّى لتحديد معنى الدّين لغوياً وعرفياً وحلّل الفكرة الدّينية في نظرة المتديّن ثمّ بحث علاقة الدّين بالأخلاق وبالفلسفة وسائر العلوم، وشرح وظيفة الأديان في المجتمع، ثمّ استعرض تاريخ العقيدة الإلهية وألمع إلى المذاهب المختلفة التّي تفسّرها واختتم بنظرة جامعة، تضم أطراف البحث وتحاول التوفيق بين مختلف مذاهبه، وانتهى إلى القول:

ولو طلبنا الحق المجرد في هذه المسألة لألقيناه ينتظم في كلمتين:

1- أنّ آيات الألوهية مبثوثة في كلّ شيء.

2- أنّ كلّ فئة من الناس لها طريق مسلوك في الاسترشاد ببعض تلك الآيات قبل بعض- وهذه الحقيقة المزدوجة يقرّرها القرآن في أوضح بيان[3].

وفي سنة 1963م، نشر العميد الركن (طه الهاشمي) كتاب "تاريخ الأديان وفلسفتها"، ولم يقف فيه موقف التوفيق الذّي أتبعه الدكتور (دراز) بل شاء عرض ما وصل إليه عرضاً موضوعياً يبقى حتى على ما تناقض منها وبدون محاولة التوفيق بينها

---

[1]- مالك بن نبي، مرجع سابق، 31.

[2]- المرجع نفسه، ص 28.

[3]- محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص 166- 167.

كما هو متعارف عليه، يقول المؤلف: "إنّ طريقتي في إخراج الكتاب تتلخص بجمع المعلومات من مظانها، كما هي، أكثر من محاولة للتوفيق بينها كما هو المتعارف. وقد تكون هناك بعض المناقضات باختلاف آراء واستنتاجات الباحثين المتضلعين بهذا الأمر، ولم أحاول الترجيح، وفضلت أن أوردها كما هي ليطّلع القارئ على مختلف وجهات النّظر"[1].

وأكّد المؤلف أنّه على الرغم من صدور كتب عديدة في السنوات الأخيرة عن الأديان في العالم العربي، فإنّ الموضوع مازال يفتقر إلى كتاب جامع يبحث في تاريخ الأديان القديمة والحديثة والبدائية والمتكاملة"[2].

والحق إنّ طريقة المقارنة في تاريخ الأديان، هي وحدها التي ميزت أحدث ما نشره الباحثون في البلاد العربية، هذه الطريقة التّي منيت ببعض التخلف بالنسبة لتقدم المناهج الأخرى، مثل الاعتماد على المنهج الفنومنولوجي، وهو الأكثر انتشاراً في الدّراسات الغربية الحديثة والمعاصرة، ذلك أنّ تاريخ الأديان المقارنة أو علم مقارنة الأديان عجز عن الاتصاف بصفة الحذر والدقّة في بعض الأحيان، واكتفى بالإشارة إلى تأثير دين في دين آخر على أحوال التشابه التيّ قد تفسّرها عوامل أخرى"[3].

ويأتي في هذا السياق السلسلة التّي ألّفها الدكتور أحمد شلبي (مقارنة الأديان والتّي نشرها بين سنتي 1960-1966م)، حيث بحث في الجزء الأول "اليهودية" وفي الثاني "المسيحية" وفي الثالث "الإسلام" وفي الرابع "أديان الهند الكبرى" الهندوسية

1- طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها دار مكتبة الحياة، بيروت1963، ص 7و8.

2- المرجع نفسه، ص 8.

3- عادل العوا وجب، مرجع سابق، ص 34.

والجينية والبوذية، ويحجم صاحب السلسلة عن التنديد ببعض مثالب طريقة المقارنة إلاّ إذا سبقتها دراسة الأديان نفسها"[1].

2 – عند المدرسة الغربية الحديثة:

لقد قامت الدراسات الدينية الحديثة في الغرب أساساً على قاعدتي الشك والنقد، واستبعاد الثوابت المعيارية وذلك بقصد توفير أ رضية خصبة للتخلص من القداسة التي يحتمها الاعتقاد، والتي تتمثل بدرجة أولى في النص الديني دون غيره، باعتباره مصدر المعرفة الكنسية.

فبداية من عصر النهضة نشطت حركة تحرير الدّراسات الدّينية من الأساطير والأسرار الفلسفية، كما زادت العناية بدراسة نصوص الكتاب المقدّس، وقد ساعد على هذه الدراسة زيادة الاهتمام بالدّراسات اللّغوية المقارنة لاسيّما دراسة العبرية والسريانية، وخروج أصحاب حركة الإصلاح الدّيني المسيحي عن قاعدة التمسك بحرفية النّصوص الدّينية، وقد لعبت البحوث التبشيرية المسيحية دوراً في ازدياد العناية بدراسة ديانات المجتمعات البدائية، فنشطت حركة التأليف في وصف العقائد، وقد ساعد المذهب التطوّري على اتّساع مثل هذه البحوث، وعناية علماء الأنثروبولوجيا بالنّظم الدّينية للأمم البدائية بوجه خاص، باعتبار أنّها تمثل إلى حدّ ما الدور الأول الذّي مرّت به الإنسانية. وفي هذا السياق عمد اللورد هربت دي شربوري، ولوك وأنطوني كولتز إلى تصنيف الدّيانات على اختلاف أنواعها، وأخذ المبشرون ومنهم كاري carry، بدراسة كتب الهند المقدّسة وترجمتها، وذهب لافيتو lafitau، إلى التقريب بين الذيانات الابتدائية وبين عبادات العصر القديم.

---

[1]– أحمد شلبي، مقارنة الأديان، اليهودية، ص 34.

وأكّد بروس brosses، أنّه من الجائز تحري أصل الدّين في سلوك الإنسان، فغدا رأيه منطلق الدّراسات الدّينية الوضعية"[1].

ومن هنا أخذت الدّراسات الدّينية تتّسع وتزداد بالكشف عن ديانات عدد كبير من الشعوب المتخلفة في الحضارة. وقد ساعد على ذلك عناية البلاد المستعمرة بإرسال بعوث تبشيرية من المتخصّصين في الدّراسات الأنثروبولوجية، للوقوف على عادات وديانات البلاد التّي تستعمرها"[2].

وعندما ترجمت المراجع والآثار استطاع العلمّاء فكّ ألغاز الحضارات البائدة، الفرعونية والهندية والحضارات الأشورية البابلية... فكتب الأب دوبوا dubois، توفي سنة 1898م، أول دراسة موضوعية عند ديانات الهند، وأسهم روبرتسون سميت وجون فريزر وماكس موللر، إسهاماً كبيراً بتنمية هذا النشاط العلمي، كما أسهم غيرهم مثل هردر وشيلر ماخر وكانت وفخته وهيجل وماركس وكونت بمختلف نظرياتهم الفلسفية حول الظاهرة الدينية.

ولأنّ منطلقاتهم متباينة وأهدافهم مختلفة، ومناهجهم شتى، فقد برزت من دراساتهم اتّجاهات فكرية مختلفة.

فقد وجد ماكس موللر، وهو عالم لغة، أن الدّين مرض لغوي، واعتبر مع خلفائه أنّ الانخلاع أصل الدّين، وأنّ الدّين انعكاس عجز البشر الطبيعي والاجتماعي.

وذهب ادوارد تايلور إلى أنّ أصل الدّين يتمثل في النزعة الإحيائية.

---

[1]- عادل العوا وحب، مرجع سابق، ص 8.

[2]- أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص 29.

ورأى آخرون أنّ أصل الدّين هو الطوطمية وهذا ماندى به، بوجه خاص، كل من روبرتسون سميث وريناخ.

أما جون فريزر فقد اعتقد أنّ أصل الدّين هو السحر.

ووجد دوركايم في الأوامر الاجتماعية أصلاً للدّين.

وقد عني الباحثون أكثر ما عنوا بتحليل الدّيانات الابتدائية لاعتقادهم بأنّها تشتمل على المفاهيم الأساسية في كل دين، وإن لم يتفقوا تماماً حول ما يقصدون بالصفة الابتدائية التّي تصف المجتمعات الإنسانية الأولى.

وأصبح ضرورياً عندهم معرفة أساطير الشعوب العريقة في القدّم لأنّها تتيح ملاحظة أشكال دينية رئيسية[1]: الدّيانات السماوية، ديانة الشمس، عبادة الحيوانات، عبادة الشياطين...

وفي ضوء هذا التطوّر الواسع أمكن اعتبار الدّيانات الراهنة، قديمها وحديثها، بل اعتبار العقائد الدّينية كافة بوجه عام أشكالاً مختلفة للدّين. وقد بات في حكم المقرّر أن الدّين قد لازم نشأة الحضارة، وبدا أنّه خصلة من الخصال التّي تميّز الفكر الإنساني حتى أنّه من العسير على ما يبدو، أن نفترض وجود مجتمع غابر خالٍ من الدّين[2].

وقد لقي البحث في الأديان، مقاومة شديدة من ممثلي اللآهوت المسيحي في الغرب، الذّين كانوا يرفضون أن يطرحوا على صعيد واحد ما يعتبر- في نظرهم- حقيقة دينية وما هو صادر عن ديانة زائفة: الحقيقة المترلة والحقيقة اللامترلة. ولعلّ هذا الجدل وجد حيث ما وجدت كلّيات اللآهوت إلى جانب كلّيات الآداب والعلوم

---

[1]- عادل العوا وجب، مرجع سابق، ص 9.

[2]- المرجع نفسه، ص 11.

الإنسانية، هذه الأخيرة التّي قدّمت لتاريخ الأديان، ولا تزال، إطاراً ومجالاً للازدهار والتعمق.

وإذا كانت- الماركسية- قد نفت أغراض علم الأديان، فإنّها لم تنكر هذا العلم، بل لجأت إلى دراسة الأديان دراسة علمية، لتبرهن على بطلان ما تدرسه، وتؤكد أن الدّين أفيون الشعوب. والماركسية رفضت أن تكون للتدّين صفة نوعية مميّزة مادام الحادث الدّيني ذاته- عندها- بنية فوقية يفسّر في نظرها بالعامل الاقتصادي أولاً والعامل السياسي والاجتماعي ثانياً.

ويؤكد مارسيل سيمون أنّ هذين الموقفين، موقف اللاّهوتيين المسيحيين في الغرب، وموقف الماركسيين، ليسا سوى موقفين أقصيين لم يمنعا نمو علم الأديان، ولا سيما منذ مطلع القرن العشرين، وبوجه خاص منذ استخدام الطريقة الفنومونولوجية كما جاء بها هوسرل، والتّي استخدمها في مجال تاريخ الأديان العالم ليهمان وفان درلو في كتابه فنومنولوجيا الدّين سنة 1933م، كما استخدمها العلامة مارسيا الياد وبعده يونغ.

وقد نما علم الأديان وازدهر في أواخر القرن التاسع عشر بوجه خاص، وواكب نموه وازدهاره نمو وازدهار أبحاث أخرى، مثل التاريخ العام، والآثار، وعلم الاجتماع، ولا يزال تقدّمه اليوم مطّرداً يؤيد رسوخه ويزيد اتّصافه بصفة علمية بعد أن أعرض منذ عهد بعيد عن المسائل الميتافيزيقية، مثل مسألة أصل العاطفة الدّينية مصيرها، وأفاد من تقدم العلوم الإنسانية، ولا سيما من المنهج الفنومونولوجي.